الأخاء

مجلة علمية تاريخية أدبية روائية مصورة

﴿ مصر مارس (آذار) سنة ١٩٢٦ — رجب سنة ١٣٤٤ ﴾

الفن العربي الاسباني

لمدام فالنتين دي سان بوان الكاتبة الفرنسية غيرة على الشرق والشرقيين وابداء ما يعن لها من رأي في اصلاح شؤونهم تجلى فيما دبجته من المقالات الممتعة في الصحف الفرنسوية وما القته من محاضرات قيمة

وقد وقفنا لها على محاضرة ممتعة عن الفن العربي الاسباني فآثرنا أن نوجزها للقراء فيما يلي : —

إن الشرق الذي مر بعدة مدنيات بينما نحن كنا في عداد البربر لم يظفر بالخلود في بلاد الغرب ظفره باسبانيا حيث ترك فيها آثاراً فنية من الروعة والعظمة بمكان . ولم يخبُ ضوء الشرق من تلك المعابد والقصور بل هو يتلألأ في قطع الرخام المتناسقة الاجزاء وفي القطع الدقيقة من الطرق التي صنعت بعوامل الولوع بالفن.

وبينما كانت بلاد الجول تقاوم فتح العرب والنفوذ الذي لم يكن يصل اليها مباشرة . فان اسبانيا وقد تعودت الرضوخ للسادة الشديدي البأس فقد كان للغزاة نصيب منها فقد استطاع العرب في اقل من قرن ان يحولوا اسبانيا الى الصف الأول من الأمم المتمدنة فهم بعد ان كانوا جعلوا من الشرق مركز المدنية جاء العرب فخلقوا فيه آخر مدنية شرقية وأصبح الشرق العجوز بفضلهم مزيجا بديعا بين البربر وبين الغربيين الجدد

ولقد أدهش العرب ما شاهدوه أول الأمر من العمارات الرومانية الباذخة والجسور والمسارح ومحال السرك وأقواس النصر والحمامات التي ألفوها في اسبانيا فتشبعوا في أعمالهم الأولى بهذه الآثار الفنية

إن المسيحيين والزمن قد أضروا كثيراً بالآثار العربية في اسبانيا فقد ذهبوا بمعالم جميع المساجد باسبانيا وحولوها الى كنائس وكذلك بدلوا معالم القصور أو هدموا الحمامات، ولكن لا يزال باقياً في المدن التي كانت المراكز الكبرى للعرب احجاراً تتم على الأدوار الثلاثة التي دخل فيها الفن الاسباني العربي فالدور الأول هو البيزنطي في قرطبه والثاني دور الانتقال الى طليطلة واشبيلية والثالث دور غرناطه

فطليطلة صخرة قائمة على نهر التاج تتكسر عليها الامواج، وهي بما يبدو عليها من سكون لا تزال تمثل المعارك الحربية ماثلة الاذهان ومرعان ما أخذ اهلوها بلغة الفاتحين ونظراً لمركزها البديع وأسوارها وطرقها الضيقة المتعرجة وأبراجها وجسورها ومساكنها الشرقية وألوانها فانها بهذه المظاهر تمثل للناظر الشرق جميعه عدا ما يشاهد بها من آثار المايجار مثل سانت ماري لا بلانش و بويرتادل سول ذات الاقواس الحديدية التي تشبه حذاء الجواد وكنيسة اليهود ذات الاقواس الحديدية ايضاً وهذه الأقواس عربية تعم على هذه الآثار، فيوجد النادر منها ويرجع الى أصل عربي مثل مصنع المغاربة

واشبيلية وهي نقطة غامضة على انها ليست ذات ضجيج كما يغالي في وصفها الروائيون ولا يوجد بين جدرانها الغناء الا بعض آثار عربية اعيد ترميمها فمنها الكزار الذي بني على أنقاض بناء روماني وصار حصوناً للمدينة قد أعيد بناؤه تماماً في عهد بطرس الاكبر بواسطة مهندسين من العرب ومعدات من آثار اشبيلية القديمة وقرطبة ومدينة الزهرة وبلنسية

وبهو السفراء الذي لا يزال موجوداً حتى اليوم يعد من أبدع ما أخرج الفن العربي فان النقوش وحلي السقف الذي به تعد في النقاء والوضوح مثل التي في الحمراء

وغرناطه والاقواس التي في بهو السفراء بدقة نقشها وحفرها وابواب هذا البهو وهي غاية في الابداع تعد من أثمن ما اخرجه الفنانون في القرن الثاني عشر وهي مع انها لا تماثل الفن الروماني او البيزنطي فانها ليست غريبة بحتة كالموجود في غرناطه وهذا لما أدخل عليها من طرق الفن الأخرى

واذا كانت الطرق الفنية الرائعة قد تناولتها ايدي التخريب من المسيحيين والزمن في طليطله واشبيلية فان منها ما لا يزال قائماً في قرطبه والحمراء مما يدل على ما كان عليه العرب من فن رائع

وكان عرب قرطبة يرغبون في ان يجعلوا من خليفتهم منافساً لخليفة دمشق وان يجعلوا المدينة بالنسبة ثانية ينبعث منها الفن والعلوم فيرسلان اشعتهما على الغرب جميعه الذي لا يزال في حالة البربرية استطاعوا ان ينشئوا في وسط المدينة كزارا جديداً تكتنفه الحدائق الغناء وزينوه بـ ٤٣٠٠ عمود من الرخام وجعلوا به غرفاً مصنوعة من الرخام المصقول منسقة الوضع والنقش وجعلوا سقوفها من الخشب الثمين الدقيق الصنع المنقوش بأبدع ما جاد به الفن حتى ينافس هذا الأثر الفني في عظمته مساجد دمشق و بغداد ومكة

وتعاقب الخلفاء فأراد كل منهم أن يتفوق على سلفه بما يعمل بتجميل هذا المسجد الفخم .

وأنشأوا في غابة بيتيس القديمة مرتفعات تشرف على نهر الوادي الكبير والخلوات وجعلوا على هذه المرتفعات بين أشجار البرتقال قوارات وأقاموا آثاراً خالدة تم على عظمتهم . وصنعوا على الارض غابة من الرخام مترامية الاطراف ترتفع قمم أشجارها عالياً وبها ٢٠٠٠ عمود من الرخام وكل هذا يدل على مبلغ ما كان لتلك الأمة الفاتحة الخالقة من المجد والعظمة

وبعد قرطبة ذات النزعة الدينية خلفتها غرناطة التي ورثت بعد سقوط خليفة

قرطبة كل ما كان لها من عظمة وأصبحت مستقر المدنية وهي آخر مدنية كانت للعرب في الشرق

وقد كان الفن العربي قد تخلص من جميع الحواشي الأجنبية ولكنه أخذ مع الأسف في التقهقر وقد علمنا التاريخ أنه عند ما يبلغ فيه حداً من الرقي والاتقان حده يأخذ في التقهقر للعلو في نوعه حتى ليكون في هذا العلو عيوباً . وكل افراط في التجمل ينقل ويهدم كل جمال

ومدينة غرناطة التي تعمها أشعة الشمس الذهبية والتي رقدت في ظل الاضمحلال لا تزال تبدي للعيون روعة الفن . ويوجد بين خرائبها قصر الحمراء وهو منشأ في وسط غابة بديعة بين القوارات يرتفع إلى السماء كأنه شعلة به عدد وفير من أعمدة الرخام وقطع الفسيفساء منظمة أبهاؤه وحدائقه تتخلله جداول الأنهار وصفت فيه الأشجار وكل ما فيه ثمين في ذاته وصنعه وفيه أبهاء السفراء « والبركا والموكارب » « والجستوسيا » « والابتسراج » وكلها آية في الروعة بأبهائها الرخامية وقبابها وأبوابها وألوانها التي يخالطها الذهب وزخارفها البديعة وما كتب فيها من آيات القرآن الكريم وما حولها من النقوش الجميلة وإلى ما غير هذا مما يجعل قصر الحمراء هذا غاية ما وصل اليه الابداع زد على هذا أن الشمس والضوء يتخللانه من جميع نواحيه وهو يعد بمثابة قصر وحصن وهو آية البناء العربي الذي يوجد مثيله في الهند في قصري آجيا ودلهي وان كان خارجه لا يبدو عليه شيء من الابداع فان داخله يدل على الحياة العظيمة بجلالها

وفي حمراء غرناطه تتمثل جميع روايات ومظاهر الفن العربي . وتوجد به أيضاً عدة صور لحيوانات منها الأسد المصورة الممثلة في صور الأسد ومنها صورة تمثل وعلا وبعض صور لأسماك صيدت بالسنار وكذلك اناء بديع صورت فيه أعشاش النحل وجميع هذه الصور مرسومة بتقسيم هندسي دقيق

ومسجد قرطبه وقصر الحمراء في غرناطه يمثلان لنا الحياة الدينية في أجلى

مظاهرها لذلك الشعب الفائح لخالق الذي لم يعوزه شيء من الأخيلة والماديات التي كانت هينة عنده .

ولما كان هذا الشعب يعيش في الهواء وتحت أشعة الشمس وله ولع بالمياه وخريرها والموسيقى وعذوبتها فقد كان له أن يصور الطبيعة في جميع مظاهرها صورة طبق الأصل فالأبواب فتحت على أبدع ما يرى من الكون بعكس الكاتدرائيات المسيحية التي كانت تجاور بعضها البعض أما القصور والمساجد العربية فقد كانت تقام على أراض حرة خلال الأشجار وفي وسط الطبيعة الحساسة وأسقفها كانت المراكز المضيئة لها كأنها قباب من الزجاج تنفذ منها أشعة الشمس

وفن البناء العربي قد اتفق والضوء وكانت الشمس تنفذ اليه من قطع كالقماش المخرم والألوان والنقوش تدل في جدتها على الظل . و بالرغم من جميع هذه الاعمال العربية البديعة الفنية فان هؤلاء العرب لم يصوروا في هذه الآثار الفنية القيمة في أي شكل من أشكال معارف الوجه

إن الفن العربي كان دليلا على أن العرب كانوا يجنحون إلى الفن و يولعون به لتحقيق مثلهم الأعلى ولم تكن مساجدهم الا تحقيقاً للحالات الحقة التي يتخيلونها .

ثم جاءت الكاثلية الفاضلة بما كان من خلاف ونزاع ونضال بين العرب والمسيحية وتفاقم هذا النزاع مما أفضى الى انشاء محكمة التفتيش وانزال القصاص بمن يمس الآثار البديعة بضرر . فكيف يسوغ التحسر والغضب على مجلس التفتيش بعد أن أصيبت الحمراء والمسجد باضرار وكيف يتسنى أن يغتفر للمسيحيين أبناء إله الجمال والصلاح أن يروا مجلس التفتيش من بينهم بينما الذين يدينون بدين محمد (صلعم) الغازي الفاتح يطيعون القرآن الذي يقول : « انما آلهنا وآلهكم آله واحد » وهذا أعظم ما يكون من التسامح . ولا نزاع في أن الحكم بالتهديد والقتل انما هو السيادة على الضعفاء . فكيف يمكن أن يغتفر ما وقع في أورشليم من قتل المسلمين وحرق اليهود بينما عمر لم يسيء اليهم ثم قتلوا ثلاثة ملايين من العرب بينما هؤلاء

تركوهم يعيشون أحراراً على الدين الذي يدينون به ؟ ومن ذا الذي يستطيع أيضاً أن يفتقر لهم انشاءهم على جزء من قصر الحمراء الذي تهدم قصراً لشارلكان وغلقهم أبواب المسجد المنفتح لأشعة الشمس المضيئة وتحرير مياه الفوارات وتعبير أشجار البرتقال واستبدال المآذن بأجراس وتهديم قسم كبير من مناحي الغابة الفنية ذات الأعمدة الرخامية .

و بالرغم من ان هذه الآثار العظيمة قد أصيبت بضرر فان آثارها لم تدرس لأن الاجراس والمذابح لم تنشيء الكاتدرائية . فالرجال يمكن ان يدعوها كاتدرائية مع انه مسجد و بالرغم مما اصابه فهو لا يزال بديعا يبعث في النفس أثرا حسنا واليوم وقد امتزج دم الاعراب ودم الأسبانيين فقد اجتمع الضوء والظل .

ثم جاء تحول المساجد واقسامها الى كنائس وادخل عليها فن آخر لم يكن في روعته ما كان لفن العرب بل أفسد ذلك الفن الجميل في حفره ولونه وتذهيبه

وما ادخل عليه من الصور الهزلية وصار المظهر الخارجي ابدع من المظهر الداخلي ولكن بالرغم مما ادخل من تبديل فأن الفن العربي لا تزال له آثار فيه

وصفوة القول ان الفن العربي اذا كان بعد ثمانية عشر قرنا قد انعدم او درست معالمه فان حياة هذا الفن العربي التي ولدت بفخار عدة زهور متضاعفة قد عاش و يعيش . والغرب مدين للشرق بتعريفه الآثار القديمة والأصول العلمية والمعارف الفلسفية والأدب الفصيح وتبذل الاخلاق والمروءة . والغرب قد نقلوا للشرق جميع محصول المدنيات الغربية عدا ما اكتسبوه منهم شخصيا فهم والحال هذه هم الذين مدنوا الغرب

كل ميل يطرق قلب الرجل يكون اولا كالمتوسل . ثم ينزل به ضيفا — ثم يصبح السيد المطلق للبيت . فلا تفتح باب قلبك للمتوسل الاول

تولستوي